الزمن عند المسلمين.. اعتمدوا خط غرينتش وأرّخوا أحداثهم بالساعات وصحابي يحدد وقت وصوله للمسجد النبوي بـ"الساعة الخامسة"

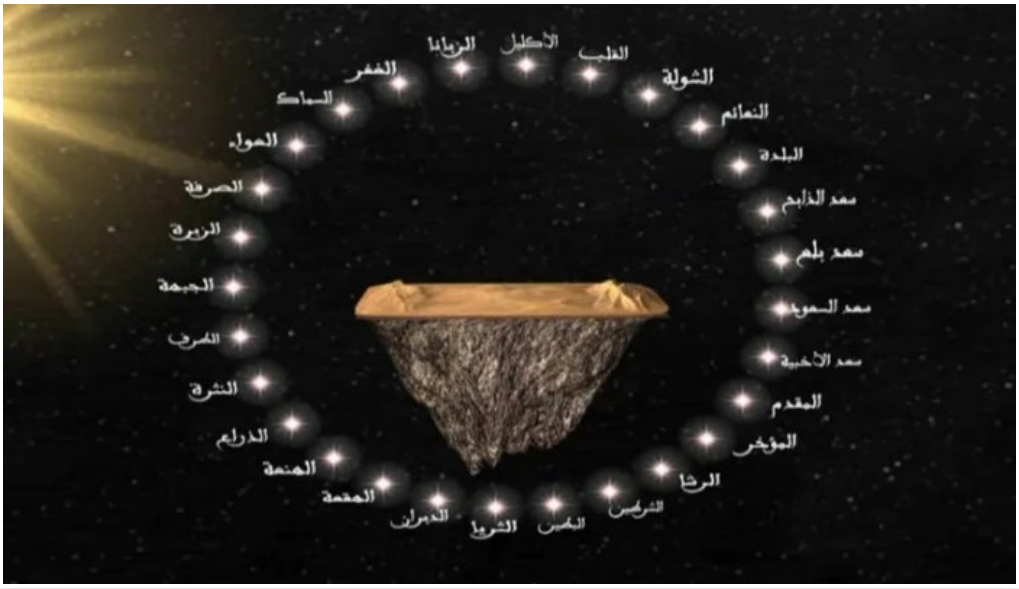

الأربعاء 5 نوفمبر 2025 08:00 م

ذكر المؤرخ تقي الدين المقريزيّ (ت 845هـ/1441م) -في كتابه ‘اتِّعاظ الحُنَفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء‘- أن مولد الخليفة الفاطميّ المُعزّ لدين الله (ت 365هـ/977م) كان بعد مُضيّ "أربع ساعات وأربعة أخماس ساعة من يوم الاثنين الحادي عشر من رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمئة (319هـ/931م)".

إن هذا التحديد الدقيق الذي يعتمد على الساعة والجزء منها لم يكن خَصِيصة مقريزية، بل كان تقليدا تاريخيا إسلاميا متواترا يتحرَّى الدقة منذ زمنٍ مبكرٍ جدًّا، إذْ ظهر في تحديد تواريخ ميلاد العلماء والخلفاء والأمراء والقادة ووفياتهم والأحداث العامة والخاصة، فكانوا يذكرونها باليوم والتاريخ والساعة والجزء منها أحيانا.

هذا من جهة الدقة؛ أما بالنسبة للمعنى فلم يكن الزمان مجرد معايير ومقادير تُطرح بلا روح أو فكرة، بل حاول العرب -تُمِدّهم في ذلك لغتُهم السخية- أن يجعلوا من الزمن عوالم تشي بالدلالة والمغزى، ففي كل لحظة هناك ما يوصَف وهناك ما يُحَسّ، وثمة فروق دقيقة بين الفجر والضحى والعصر والأصيل والغروب والهزيع... إلخ. ثم جاء الإسلام فأعطى الوقت دفعة قوية في الوعي عبر ربط تلك الأوصاف المعروفة عند العرب بواجبات ومستحبّات دينية، وبالتالي أصبح الإحساس بالزمن معمقا بحيث شغل حيّزا غير محدود من تفكير المسلم.

وعلى المستوى الاجتماعي؛ شاعت بين العرب أقوال معبّرة عن تحديد الوقت والمواعيد من قبيل عبارات "قابلني ظُهرًا، وضحىً، وعشيّة" التي لا تزال تستعمل عندنا اليوم، ولا يعلم كثيرون أنها من بقايا تجليات المعيارية في الزمن الحضاري الإسلامي القديم، بل منذ أيام العرب الأولى. ولئن كانت تلك المواعيد قد تعني -في تداولها اليوم- هروبا من الضبط وانفلاتا من الدقة؛ فإنها قديما كانت تُحيل على مواعيد محدَّدة وموصولة بتوقيتات معروفة معيَّنة.

كان العرب -بعكس الانطباعات المتسرعة عن ثقافتهم الزمنية- كانوا يعون الوقت بل ويتغالون في تقديره، ومنحوه بعض المعاني التأثيرية وآمنوا بديمومته حتى كانت الدهرية العربية أشبه بالديانة، ومن هنا رفضوا عقيدة البعث والحساب.

وبعد مقْدم الإسلام؛ اعتنى المسلمون بضبط المواقيت وأخذوا معارفهم المتعلقة بالزمن بالترجمة عن اليونانيين وقدماء المصريين، ولكنهم طوروها -كعادتهم مع المعارف المستوردة- حتى جرى توطينها بالكامل في بيئتهم الحضارية، وكان منهم عباقرة في هذا الميدان وأصبحوا أول مَن صنع الآلات التي تقيس الساعات ذات الستين دقيقة، وكذلك عرفوا التقسيمات الزمنية الطولية التي تُعْرف اليوم بـ"خط الطول الأول" (خط غرينتش)!!

ولما كان الوقتُ على تلك المنزلة في ثقافة العرب قبل الإسلام وبعده، كان طبيعيًّا أن يكونوا على درجةٍ من التميّز في التعامل معه، والسبق في طرق تقسيمه وقياسه، والتعبير عن جريانه وتقلباته؛ لكن هل كانوا يحسبون وقتهم كما نفعل الآن؟ ويقسمون يومهم وليلتهم أربعًا وعشرين ساعة؟ وهل كان أحدُهم يواعدُ الآخر عند الساعة الخامسة أو السادسة مثلًا؟ وإذا كانوا يفعلون ذلك فكيف كانوا يقيسونه؟ وما هي طريقتُهم في الإخبار به؟

هذا ما تبحثه هذه المقالة التي تقدم قراءة تطبيقية لنظر المسلمون في الزمان، وآثار هذا التطبيق في حياتهم وأيامهم وأدلتها النظرية والتاريخية، وكيف كانوا يزاوجون بين الرقمنة والمعنى في فهم الزمان، فكانوا يترقبوا ابتداء وانقضاء "الساعة الصغرى" بآلاتها ومآلاتها، لكنهم لم يغفلوا عن "الساعة الكبرى" التي هي خارج الحسابات والمواقيت!!

تقسيم عريق

عرف العرب الزمن وقدروا الوقت بتقسيمات واضحة، وزادهم الإسلام اتصالا بالمواقيت لضبط عباداتهم ومعاملاتهم، ودوّن مؤرخو الحضارة الإسلامية أحداثها بالساعات والدقائق. وما ذاك إلا لأن الوقت كانت له مكانة عظيمة في التراث العربي والإسلاميّ؛ فما من تكريمٍ يُقالُ في قيمة الوقت أكبرُ من الحديث النبوي الصحيح: «لا تَسُبُّوا الدهرَ فإنّ الله هو الدهرُ»؛ (رواه مسلم وورد في صحيح البخاري بلفظ مقارب)، وإن كان إطلاق الدهر على الربّ مجازيًّا.

وكان الوقتُ عند العرب بهذه الأهمية قبل الإسلام؛ فقد قال الأمير الصنعانيّ (ت 1182هـ/1768م) -في كتابه ‘التنوير شرح الجامع الصغير‘- عند شرحه للحديث السابق: "العرب كانت إذا نزل بأحدهم مكروه يسبّ الدهر، ويعتقد أن الذي أصابه فِعلُ الدهر، فكأن هذا كاللعن للفاعل، ولا فاعل لكل شيء إلا الله". وهذا موافقٌ لما نقله القرآن الكريم عن العرب من أنهم قالوا: (نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)؛ (سورة

الجاثية/الآية: 24). وإذا كان الإسلام قد جاء بتصحيح معتقد العرب في مسبِّب الأسباب؛ فإنه لم يزد الوقت إلا تعظيمًا واحترامًا، ولذلك قرر في تعاليمه أن أول ما يُسأل عنه المسلم في آخرته: «عن عُمُره فيمَ أفناه؟»؛ (حديث صحيح أخرجه الترمذيّ وغيره).
وكانت العربُ تقسّم يومها أربعًا وعشرين ساعةً كما يصنع الناسُ الآن، لكنّها لم تكن ساعاتٍ متساويةً كساعات اليوم، بل كان النهارُ عندهم اثنتيْ عشرة ساعة، والليل اثنتيْ عشرة ساعة، طال أحدهما أو قصر وبناءً على هذا؛ فقد كانت تطولُ ساعةُ النهار في الصيف –مع طول النهار- حتى تبلغ أكثر من سبعين دقيقة بدقائق اليوم، وفي المقابل تقصرُ ساعةُ الليل إلى أقلّ من خمسين دقيقة، وفي الشتاء يحصلُ العكس، فتتمدد ساعات الليل وتتقلّص ساعات النهار
وفي ذلك يقول شهاب الدين القَلْقَشَنْدي (ت 821هـ/1418م) -في 'صبح الأعشى في صناعة الإنشاء'- إنّ "كلّ واحد من الليل والنهار اثنتا عشرة ساعة زمانيّة: تطول بطول أحدهما وتقصر بقصره (= قسمة مدة النهار أو الليل إلى اثني عشر جزءا بصرف النظر عن طوله وقصره)، ولكلّ ساعة منها اسم يخصّها: كالشّروق وهو أوّل ساعات النهار، والغروب وهو آخر ساعاته، والشّفق وهو أوّل ساعات الليل، والصّباح وهو آخر ساعاته".
ولعلّ أقدم نصّ عربيّ موثَّق يذكرُ هذه الساعات هو ما رواه الإمامان البخاري (ت 256هـ/870م) ومسلم (ت 261هـ/875م) وغيرهما من حديث أبي هريرة (ت 59هـ/680م): "من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر".
وقد اختلف الفقهاء في معنى الساعة في هذا الحديث: هل يعني ساعات النهار –التي نتحدّث عنها- أم إنه قصد الساعة بمعنى جزء من الوقت غير معيّن؟ وكان لهم ترجيحات ومناقشات لم يقل أحدٌ خلالها إن هذه الساعات لم تكن معروفةً زمن النبي ، بل هم مجمعون على وجودها وعلى العمل بها في ذلك الوقت، لكنهم اختلفوا في مقصد النبيّ
ثم اختلف الذين رأوا أن النبيّ قصد ساعات النهار المعروفة؛ فقال الإمام النووي (ت 676هـ/1277م) -في شرحه لـ'صحيح مسلم'- معلقا على هذا الحديث: "واختلف أصحابنا: هل تعيين الساعات من طلوع الفجر أم من طلوع الشمس؟ والأصح عندهم [أنه] من طلوع الفجر". وقال أيضًا: "ومعلوم أن النبي كان يخرج إلى الجمعة متصلا بالزوال، وهو بعد انفصال السادسة".
وذكرُ اثنتي عشرة ساعةً من النهار أو الليل واردٌ في غيره من الحديث، لكنّ ما سبق كان المثال الأشهر والأصحّ، وهو الذي دارت حوله مناقشات الفقهاء التي يمكنُ استشفافُ تقسيمهم الوقت من خلالها وما دار حول هذا الحديث وغيره من نقاشٍ دلّ على أنهم كانوا يستعملون هذا العدّ منذ زمن قديم، فيقولون: الساعة الأولى والثانية والثالثة... وهكذا
ويؤيّد ذلك ما ذكره المؤرخ الواقديّ (ت 207هـ/822م) -في كتابه 'فتوح الشام'- من تحديد بالساعات لبداية ونهاية رحلة الصحابي عبد الله بن قُرْط الأزْدي (ت 56هـ/677م) إلى المدينة، حين قدِم بكتاب من قائد جيوش الشام أبي عبيدة بن الجراح (ت 18هـ/640م) يطلب فيه المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ت 23هـ/645م) قبيل معركة اليرموك (وقعت سنة 15هـ/637م). قال ابن قُرْط الأزْدي: "فركبت من اليرموك يوم الجمعة في الساعة العاشرة بعد العصر، وقد مضى من شهر ذي الحجة اثنا عشر يوما والقمر زائد النور؛ فوصلت يوم الجمعة في الساعة الخامسة والمسجد مملوء بالناس".

اصطلاحات زمنية

وقد كان لكلّ ساعةٍ من ساعات العرب الأربع والعشرين اسم، وقد نقل هذه الأسماء أبو منصور الثعالبيّ (ت 429هـ/1039م) في كتابه 'فقه اللغة'؛ فسَاعَاتُ النَّهارِ: "الشُّرُوقُ، ثُمَّ البكورُ، ثُمَّ الغُدْوَةُ، ثُمَّ الضُّحَى، ثُمَّ الهاجِرَةُ، ثُمَّ الظَّهِيرَةُ، ثُمَّ الرَّوَاحُ، ثُمَّ العَصْرُ، ثُمَّ القَصْرُ، ثُمَّ الأَصِيلُ، ثُمَّ العَشِيُّ، ثُمَّ الغُروبُ وسَاعَاتُ اللَّيلِ: الشَّفَقُ، ثُمَّ الغَسَقُ، ثُمَّ العَتَمَةُ، ثُمَّ السُّدْفَة، ثُمَّ الفَحْمَةُ، ثُمَّ الزُّلْفَةُ، ثُمَّ البُهْرَةُ، ثُمَّ السَّحَرُ، ثُمَّ الفَجْرُ، ثُمَّ الصُّبْحُ، ثُمَّ الصَّباحُ". قال الثعالبي: "وباقي أسماء الأوقات تجيء بتكرير الألفاظ التي معانيها متفقة". هذا ما نقله الثعالبيّ عن العرب؛ والحقُّ أن بعض أسماء الساعات التي ذكرها لم أره في شيء من كلامهم في المعاجم ولا كتب الأدب والشعر
على أن المؤرخ العراقي جواد علي (ت 1408هـ/1987م) يورد -في كتابه 'المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام' نقلا عن مصادر تراثية- نظامَ التقسيم الزمني نفسه، وإن كان يغير بعض ألفاظه وترتيب بعض ساعاته كما جاءت عند الثعالبي؛ فيقول إنه "يروي الأخباريون أن العرب وضعت لساعات النهار والليل أسماء غير مستعملة عندنا، فأما ساعات النهار فهي: "الدُّرور" (الدرور) ثم البزوغ (البزاغ)، ثم الضحى، ثم الغزالة، ثم الهاجرة، ثم الزوال، ثم الدُّلوك، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم الصُّبوب، ثم الحدود، ثم الغروب ويقال فيها أيضًا: البُكور ثم الشروق، ثم الإشراق، ثم الرَّأْد، ثم الضحى، ثم المُتُوع، ثم الهاجرة، ثم الأصيل، ثم العصر، ثم الطَّفَل، ثم العَشِي، ثم الغروب
وأما ساعات الليل فهي على حد قولهم: الشاهد، ثم الغسق، ثم العتمة، ثم الفحمة، ثم الموهن، ثم القطع، ثم الجوسر (الجوس/الجوشن)، ثم العبكة، ثم التباشير، ثم الفجر الأول، ثم المعترض، ثم الإسفار". ثم يعقب بأن هناك "أسماء أخرى يذكرها اللغويون، حيث يروون أن الجاهليين كانوا يقسمون اليوم إلى أربع وعشرين ساعة؛ غير أن من الصعب العثور على دليل يفيد وجود هذا التقسيم عندهم".
وهكذا فإن العرب كانوا يعدّون ساعات النهار ابتداءً من شروق الشمس، وساعات الليل من بعد غروبها، كما جاء في نص القلقشندي أعلاه؛ فإذا قال العربيّ: سأقابلك عند الساعة الثانية من النهار، فإنه سيقابلك في نحو الساعة السابعة صباحًا بتوقيت اليوم، وإذا قال لك سأقابلك عند الساعة الواحدة من الليل، فذلك يعني بعد المغرب بقليل
وقد كانت طريقتهم في حساب الساعات وعدّها دقيقةً جدًّا من خلال تتبع الظلّ في النهار، وغياب الشمس ثم الشفق ثم تدرّج الظلمة ليلًا فمن كلامهم في الحساب الدقيق للساعات قول الإمام ابن بَطّال القرطبي (ت 449هـ/1058م) في شرحه لـ'صحيح البخاري': "إن أهل العلم بالأوقات والحساب لا يختلفون أن الشمس إنما تزول في أول الساعة السابعة، وتقع الصلاة إذا فاء الفيْء ذراعًا، وذلك في الساعة الثامنة بعد مسير خُمسها في زمن الصيف، وبعد مسير نصفها في زمن الشتاء".
ومعنى كلامه أنه إذا فاء الفيء ذراعًا في الصيف فقد مضى من الساعة الثامنة خمسها، وإذا فاء الفيءُ ذراعًا في الشتاء فقد مضى من الساعة الثامنة نصفُها، لأن ساعات النهار تطول في الصيف وتقصر في الشتاء وقد كان ابن بطال يناقشُ قولًا للإمام عبد الملك بن حبيب المالكي (ت 238هـ/852م) يرى فيه أن الشمس تزول في الساعة السادسة من النهار فكل هذا يدلُّ على دقتهم في حساب الساعات بالخُمُس والنصف والربع منذ زمن قديم
وأغلبُ الظنّ أن العرب إنّما أخذوا هذا التقسيم للساعات عن اليونانيين والمصريين لشبهه الكبير بطريقتهم؛ فقد ذكر بيتر بوردمان -في بحث نشره بعنوان: «عدُّ الوقت: تاريخ مختصر للساعات الأربع والعشرين»- أن اليونانيين القدماء كانوا يعدّون أوقاتهم على أربع وعشرين ساعةً، نصفها نهارًا ونصفها ليلًا "على الوصف المطابق لما كان يفعله العرب، وأنّ الفضل يعود إليهم في إعادة عدّ الساعات من منتصف النهار ثم منتصف الليل في القرن الثالث عشر [الميلادي/السابع الهجري]، ذلك أنّهم رأوا العدّ أسهل من منتصف النهار لوضوح الساعة في وقت الظهيرة حيثُ تكون الشمسُ في أعلى مستوى لها في السماء"؛ وفق كلامه وهو ما عبّر عنه العرب بكون الشمس حينها تكون "في كبد السماء".

ويؤيّد القولَ بأن العرب أخذوا هذا التقسيم عن اليونانيين والمصريين؛ عزوُ قدماء الجغرافيين العرب -كابن الحائك الهمْداني (ت 334هـ/945م) في كتابه ‘صفة جزيرة العرب’- تقسيمَهم للوقت إلى هرمس الحكيم الذي هو مصريّ في أغلب الأقوال، وإلى بطليموس/بطليموس (ت 150م) وهو يونانيّ مصريّ.

توقيتات منهجية

وقد جزم أصحاب ‘دائرة المعارف الإسلامية’ الاستشراقية بأن "تقسيم اليوم بليلته (= النهار مع الليل) إلى أربع وعشرين ساعة... يرجع -على كل حال- إلى التأريخ اليوناني"، لكنهم أشاروا إلى أنه "في حساب الزمن عند الناس لا تُستعمل إلا «الساعات الزمانية» [المتفاوتة الطول حسب المناطق والفصول]، أما الفلكيون فهم يحسبون الزمان بحسب ساعات الاعتدال" ذات الطول الثابت في تساويه. أما المؤرخ جواد علي فيرى أن "ساعتنا المعروفة مأخوذة من الساعة السومرية البابلية، فقد قسّم البابليون الليل والنهار إلى ساعات متساوية هي اثنتا عشرة ساعة لكل من الليل والنهار، وجرى الناس على هذا التقسيم حتى اليوم".

إن الليلة عند العرب تسبقُ النهار؛ أو على حد تعبير برهان الدين ابن مُفْلِح الحنبلي (ت 884هـ/1479م) -في كتابه ‘المبدِع في شرح المُقْنِع’- فإن "العرب تغلّب في التاريخ الليالي على الأيام"؛ فيبدأ اليوم العربيّ من غروب الشمس لا عند منتصف الليل، ويعلل شهاب الدين القَلْقَشَنْدي ذلك بقوله -في ‘صبح الأعشى في صناعة الإنشاء’- إن "العجم تؤرّخ بالأيام...؛ والعرب تؤرّخ بالليالي لأن سنيهم وشهورهم قمريّة، وابْتِداء الهلال بالليل".

ولما كان اليومُ العربيّ يبدأ من غروب الشمس لا من منتصف الليل فإن العربيّ القديم لم يكن يحارُ كما يحارُ غيرُه اليوم فيقول: انعقد الحفلُ في الليلة التي بين الاثنين والثلاثاء الماضيين، بل يقول: ليلة الثلاثاء، يعني بذلك بعد غروب شمس الاثنين. ولذلك يصلّي المسلمون التراويح قبل أن يصوموا يومهم الأول من رمضان، ويسمُّون الليلة الأولى من شوال "ليلةَ العيد" قبل أن تطلع عليهم شمسُه.

والبدء من حلول الظلام -لا من طلوع الشمس- موافقٌ لما نُسب إلى اليونانيين أيضًا؛ كما ذكره بيتر بوردمان في بحثه. وعلى أية حال؛ فإن القَلْقَشَنْدي صرّح بأن موظفي الدولة في زمانه -خلال القرن التاسع الهجري/الـ15م- من الكُتّاب تخلوا عن التوقيت بـ"الساعات الزمانية" كالشروق والغروب والشفق، "وصاروا يؤرّخون بالساعات المشهورة عندهم: كالأولى من النهار أو الثانية، أو وقت الظهر، أو وقت العصر، ونحو ذلك"، ولعل في ذلك ما يشير إلى اتجاه الناس -من حينها- نحو مزيد من الضبط في تحديد أوقاتهم.

عرفنا أن العرب كانوا يسمون كل ساعة باسم يخصّها كالفجر والضحى والظهيرة، والغسق والشفق والعتمة؛ لكن كيف كانوا يعبّرون عن تلك الساعات؟ هل كانوا يستعملون الأسماء أم الأعداد؟ وكيف كانوا يجزّئون الساعة الواحدة؟

لقد كان العربُ يستعملون أسماء الساعات في التعبير عن الوقت غالبًا، وقلّ أن يذكروا الأعداد؛ فكانوا يقولون: آتيك عند الهاجرة، ويشتقون منها: فيقولون: أتاني مهجّرًا، يعني في الساعة العربية الخامسة من النهار، أي: قبل الظهر! وقد جاء في حديث عبد الله بن عمر (ت 73هـ/693م) في الحج: "حتى إذا كان عند صلاة الظهر، راح رسول الله ﷺ مهجّرًا، فَجَمَعَ بينَ الظهر والعصرِ"؛ (سُنن أبي داود).

وقد غلب في استعمال العرب أن يذكروا هذه الأسماء دون العدد، لكنّهم كانوا يذكرون العدد أيضًا، ويستعملونه في أشعارهم وآدابهم، وفي كلامهم اليوميّ، وفي معاملاتهم الرسميّة. فمن ذكرهم عدّ الساعات في أشعارهم قولُ بشار بن بُرْد (ت 169هـ/785م) عادًّا الساعات، وذلك لا يكون إلا لوحدةٍ قابلةٍ للعدّ:

كأنِّـي إذا مَا أَطْمَـعَتْ فِي لِقَـائِهَا ** عَلى دَعْوَةِ الدّاعِـي إلى جَـنَّةِ الْخُلْدِ
أعُدُّ بها السّـاعَـــاتِ حَتَّى كأنَّهَا ** أرى وجهَـها لا بـل تمثّـله عنـدي

ومن تحديدهم القديم للوقت بساعةٍ معدودة ما أورده الحافظ ابن عبد البر القرطبي (ت 463هـ/1071م) –في كتابه ‘التمهيد’- من أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت 101هـ/720م) كان "يرتقب الأوقات وتكون عنده علامات الساعات" لتحديد أوقات الصلوات. ونقل ابن عبد البر بسنده عن الإمام الأوزاعي (ت 157هـ/775م) أن هذا الخليفة الأموي كان "يصلي الظهر في الساعة الثامنة والعصر في الساعة العاشرة".

تأريخ بالساعات

ويؤيّد ذلك ما نقله كثيرٌ من المؤرخين -منذ زمنٍ مبكّرٍ جدًّا- من تواريخ ميلاد العلماء والخلفاء والأمراء والقادة ووفياتهم والأحداث العامة والخاصة، حيثُ كانوا يذكرونها باليوم والتاريخ والساعة والجزء من الساعة في بعض الأحيان. ولعلّ من أقدم نماذج ذلك ما ذكره المؤرخ تقي الدين المقريزي (ت 845هـ/1441م) -في كتابه ‘اتّعاظ الحُنَفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء’- من أن مولد الخليفة الفاطميّ المعزّ لدين الله (ت 365هـ/977م) كان بعد مضيّ "أربع ساعات وأربعة أخماس ساعة من يوم الاثنين الحادي عشر من رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمئة". فهذا تحديدٌ دقيق يعتمد على الساعة والجزء من الساعة!

ومن ذلك قول محيي الدين القرشي (ت 775هـ/1373م) -في ‘الجواهر المُضِيّة في طبقات الحنفية’- إن السلطان الأيوبي المعظَّم ابن العادل (ت 624هـ/1227م) "توفي في سَلْخ (= آخر يوم) ذي القعدة في الساعة الثالثة من يوم الجمعة سنة أربع وعشرين وستمئة بدمشق".

ويسجل المؤرخ المملوكي ابن تَغْري بَرْدي (ت 874هـ/1469م) -في ‘المنهل الصافي’- أن السلطان المملوكي الظاهر جَقْمَق (ت 857هـ/1453م) "خلع نفسه من السلطنة في الساعة الثانية في يوم الخميس الحادي والعشرين من محرم سنة سبع وخمسين وثمانمئة".

وفي تواريخ ولادة ووفيات العلماء؛ يخبرنا النعيمي الدمشقي (ت 927هـ/1521م) -في كتابه ‘الدارس في تاريخ المدارس’- أن قاضي القضاة بدمشق شرف الدين ابن قاضي الجبل الحنبلي (ت 767هـ/1365م) "وُلد في الساعة الأولى من يوم الاثنين تاسع شعبان سنة ثلاث وتسعين وستمئة". كما يحدثنا تاج الدين السبكي (ت 771هـ/1369م) -في ‘معجم الشيوخ’- أن العالمة آمنة بنت إبراهيم الواسطي "توفيت آخر نهار السبت السادس من ذي الحجة سنة أربعين وسبع مئة بدمشق، وصُلي عليها في الساعة الرابعة من يوم الأحد بالجامع المظفّري".

وفي استخدام الساعة في الأحداث العامة؛ يفيدنا المؤرخ العباسي الصفدي (ت بعد 717هـ/1317م) -في كتابه ‘نزهة المالك والمملوك’- بأن مدينة بلبيس المصرية حاصرتها سيول الأمطار سنة 716هـ/1316م، حتى "انقطعت طريق الشارع إلى بلبيس من باب مصر إلى باب الشام، وكان ذلك جميعه في ساعة واحدة ونصف «ساعة رملية» من اليوم المذكور".

ويذكر المقريزي -في كتابه ‘السلوك لمعرفة دول الملوك’- أنه في يوم الاثنين 18 جمادى الآخرة سنة 787هـ/1385م "زُلزلت القاهرة في الساعة الرابعة زلزلة خفيفة". كما يخبرنا الرحالة الأندلسي ابن جبير الكناني (ت 614هـ/1217م) بدقة تاريخ وصوله إلى مكة سنة 579هـ/1183م؛ فيقول في كتاب رحلته: "ودخلنا مكة حرسها الله في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع، وهو الرابع من شهر أغشت (= أغسطس)" سنة 1183م.

ومن أطرف ما ذكره المقريزيّ -في ‘المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار’- الاستعمالُ الفاطميّ الرسميّ للساعات؛ فقد ذكر في أحداث سنة 395هـ/1006م بمصر أنه "قُرئ سجلٌّ بأن يؤذَّن لصلاة الظهر في أول الساعة السابعة، ويؤذَّن لصلاة العصر في أول الساعة التاسعة". فهذا توثيق لاستعمال الساعات في المراسيم الرسمية، كما أن فعلهم هذا يُشبه ما تصنعه وزارات الأوقاف اليوم من جدولة لأوقات الصلوات وطباعة لإمساكيات رمضان، وغير ذلك مما يعين الناس على ضبط أوقات عباداتهم.

والفاطميون ذوو ميل إلى الانضباط في هذا المجال، فقد كانوا يعتمدون الحسابات الفلكية في دخول الشهر القمري لا رؤية الهلال. ومن غلوّهم في ذلك ما حكاه شمس الدين الذهبي (ت 748هـ/1347م) –في ‘سير أعلام النبلاء’- من قتلهم في سنة 335هـ/946م "الإمامَ الشهيد قاضي مدينة برقة محمد بن الحُبَيْلي (ت 335هـ/946م)"، لرفضه إصدار أمر للناس بالإفطار من رمضان دون رؤية هلال العيد بالعين. ثم علق الذهبي قائلا: "وكان هذا من رأي العبيدية، يفطرون بالحساب ولا يعتبرون رؤية".

مواعيد دقيقة

كان العرب إذا ذكروا العدد يقولون: عند مضيّ الساعة الأولى من النهار، أو عند مضيّ الساعة الثانية من الليل، أو عند مضيّ ثلاث ساعات أو أربع ساعات من النهار أو الليل وهكذا. ولم يكونوا يستعملون لفظ "الساعة الواحدة" مطلقًا، بل يقولون: "الساعة الأولى". كما لم يكونوا يقسّمون الساعات إلى دقائق وثوانٍ مثلما نفعله اليوم، بل يقولون مثلًا: ثلاثة أرباع الساعة، وأربعة أخماسها، وسُبع الساعة، ونصفُ سبع الساعة.. وهكذا.

قال ابن قتيبة الدِّينَوَري (ت 276هـ/889م) -في كتابه ‘الأنواء’- متحدّثًا عن الهلال ومُكثه في السماء ابتداءً من أول الشهر: "ويُعلم أنه [أي الهلال] يمكث في السماء ستة أسباع ساعة من أولها ثم يغيب، ولا يزال في كل ليلة يزيد على مكثه في الليلة التي قبلها ستة أسباع ساعة".

ولا يزال بعضُ هذه الاستعمالات موجودًا في كلامنا اليوم؛ فنقول: قابلني ظُهرًا، وضحىً، وعشيّة، بأسماء الساعات القديمة عند العرب. ونقول: الرابعة والنصف، والخامسة والثلث، والسادسة والربع، ولا نُجاوز ذلك إلى الخُمُس والسدس والسبع -كما فعل بعضُ أسلافنا- بل نستعملُ الدقائق.

وقد ذُكِرت الدقائق والثواني في مؤلفاتنا التراثية بالغة القدم، مثل كتاب ‘صفة جزيرة العرب’ لابن الحائك الهمْداني؛ لكنه كان يذكرها كوحدات قياسٍ فلكيّة، لم تلبث أن أخذت مكانها وحداتُ قياس زمنية لارتباط بعضهما ببعض. وسيأتي مزيد حديث عن ذلك.

كما كانوا يستعملون وحدةً زمنيّة لا تزال موجودةً حتى الآن في بعض بلاد المغرب العربي مثل تونس، وهي "الدَّرج". واستعمال الدرج/الأدراج في التعبير عن أجزاء الوقت قديمٌ جدًّا عند العرب، وهو أقدم بكثير من الدقائق، وقد استعاروه من أدراج الأفلاك التي كانوا يقيسون بها الوقت كما هو معلوم. ولذلك نجدُ الشاعر الفرزدق (ت 110هـ/729م) يقول:

أَقولُ لِمَغلوبٍ أَماتَ عِظامَهُ ** تَعاقُبُ أَدراجِ النُجومِ العَوائِمِ

فقد استعمل الفرزدق "أدراج النجوم" (= تحركاتها) وحدةً زمنيّة، كما هو شأنُ أهل العلم بالأفلاك والحساب في ذلك الوقت. وقال المرزوقي الأصفهاني (ت 421هـ/1031م) -في كتابه ‘الأزمنة والأمكنة’- إن "تعاقب النجوم [هو] أن يؤقِّت القوم لمقدار مسيرهم وقتاً، فتلك عُقْبَتُهم (= مدة رحلتهم)، فإذا قضوها ودخلوا في غيرها من أمثالها فتلك عُقبة ثانية؛ فإن دام ذلك منهم فذلك تعاقب أدراج الكوكب".

ثم لم تلبث الأدراجُ أن صارت تُذكر مقرونةً بالساعات، ومن جميل ذكرها في الشعر قول ابن العفيف التلمسانيّ (ت 688هـ/1289م):

خطبتُ وصْلَكمُ في جامعٍ لهوًى ** وقمتُ مُبتدِرَ الساعاتِ والدُّرَجِ!

وقد جاء في بعض التواريخ أن الدَّرج صار في الأعصار التي بعد ذلك وحدةً متميّزة قابلةً للتقسيم، فكانوا يذكرون نصف الدرج وربعه وخمسه مثلًا، كما كان يوثّق به ابن تَغْري بَرْدي الأحداث في كتابه ‘النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة’. ومن ذلك قوله إن السلطان المظفر أبا السعادات الشركسي (ت 833هـ/1430م) تولّى الحكم "على مضيّ خمس درج من نصف نهار الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمئة (= 1421م)".

استخدامات متوارثة

ولم أجد من ذكر "الدّرج" وحدةً زمنيّة من أصحاب المعاجم المشهورة، خاصة المتأخرة نسبيًّا منها مثل ‘لسان العرب’ و‘تاج العروس’، بل عثرتُ به صُدفةً في كتب التاريخ والأدب. لكن هذه المعاجم أوردت "الدرجة" في مصطلحات الحسابات الفلك؛ فقد قال ابن منظور (ت 711هـ/1311م) -في ‘لسان العرب’- إن "كل بُرْج من بُرُوج السماء ثلاثون دَرَجة".

ويقول الفيلسوف الفلكي أبو الريحان البِيرُوني (ت 440هـ/1049م) -في كتابه ‘تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة’- إنه "يجتمع من البروج شهور ومن الدرج أيام". وقبل البِيرُوني؛ أعطانا العالم الفلكي ابن جابر البَتّاني الحرّاني (ت 317هـ/929م) -في كتابه ‘الزيج الصابئ’- تحديدا للدرجة الفلكية؛ فقال إنها "تنقسم إلى ستين قسما تسمى الدقائق، وكل دقيقة منها تنقسم إلى ستين قسما أيضا تسمى الثواني، وكل ثانية منها تنقسم إلى ستين ثالثة، وما بعد ذلك فعلى هذا الرسم من القسمة إلى العواشر وما بعدها".

وإذا كان كتاب ‘معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم’ -المنسوب إلى الإمام جلال الدين السيوطي (ت 911هـ/1505م)- قد أمدنا بتقسيم وتعريف للساعات عند الأقدمين، فقال إن "السَّاعَةُ المعوجّةُ: هِيَ نصف سدس النَّهَار أَو اللَّيْل الَّذِي لَيْسَ بمعدَّل (= ليس بمعتدل)، [ثم] السَّاعَةُ الزَّمَانِيَّة كَذَلِك، [ثم] الساعةُ المستويةُ: مِقْدَار مَا يَدُور من الْفلك خمس عشرَة دَرَجَة"؛ فإن العرب اليوم يختلفُون اختلافًا كبيرًا في التعبير عن الساعة رغم توحُّد مفهومها عندهم، خاصّة بين المشرق والمغرب العربيين.

ففي تونس مثلًا؛ إذا لم تكن من أهلها وسألتَ أحدهم عن الوقت، فقال لك: "خمسة وسبعة"! فلعلّك تستغرب من جوابه وتقول: يا لهؤلاء القوم ما أعظم دقّتهم في تحديد الوقت! تظنّها: 5:07، ثم إذا عرفت طريقة القوم فهمتَ أنه قصد 5:35!! ذلك أنهم يسمون كلّ خمس دقائق "دَرْجًا" فكان قصدُه: الساعة خمسة وسبعة أدراج (= 35 دقيقة).

أما أهل المشرق العربي فيقولون: "خمسة ونصّ وخمسة". ولا أظنّ الدَّرْج المغاربيّ -بمعنى خمس دقائق- موافقٌ في طوله للدَّرْج في كلام الأقدمين؛ فالدقائق الخمس بعيدةٌ من التجزئة، وقد كانوا يقسمون الدّرج إلى أجزاء كما نجد عند ابن تغري بردي في قوله إن "القاضي الشافعي أسرع في الخطبة والصلاة إلى الغاية حسبما كان أشار إليه السلطان بذلك [لأنه كان مريضا]، بحيث إن الخطبة والصلاة كانتا على نحو ثلاث دَرَجٍ رملٍ وبعض دقائق"، وهو ما يفيد بأن "الدرج" وقت بالغ القصر.

وعلى أي حال؛ يبدو أن في تقدير "الدَّرْج" تفاوتا بين الأقطار ربما عبّر عنه المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (ت 1300هـ/1883م) بقوله في كتابه ‘تكملة المعاجم العربية’: "ودَرْج عند أهل قسطنطينة: خمس دقائق...، ودَرَجَة: أربع دقائق"، إلا إذا قلنا إن "الدَّرْج" غير "الدَّرَجة".

ونادرًا ما تجدُ من أهل تونس -ولعله في بلاد المغرب العربي كلها- من يقول: قابلني الساعة الثانية عشرة، بل يقول باللهجة: "بش نتقابلوا نص النهار"، أو "نص الليل"، ويضيفون عليه الأنصاف والأرباع والأدراج، فيقولون: نص النهار وربع، ونص الليل ونص، ونص الليل ودرجيْن. ويندرُ أن يقولوا كذلك: الساعة "واحدة"، أو الساعة "ثنتين" كما يفعل المشارقة، بل يقولون: "مَضي ساعة" و"مضي ساعتين"، أو "ع الساعتين". ولعلّ الطريقة المغاربية في التعبير عن الوقت أفصحُ وأقربُ إلى طريقة الأجداد.

ساعات الاستواء

وإذا كان قد غلب على طريقة العرب في تقسيم الوقت استعمالُهم الساعات الأربع والعشرين النهارية والليلية، المتفاوتة الطول بين

الصيف والشتاء؛ فإنّ تاريخهم القديم لم يخلُ ممن يحسبُ وقته على أربعٍ وعشرين ساعةً متساوية (ستين دقيقة لكل منها) مثل ساعات اليوم بالضبط، غير أن هذا كان شبه محصور في علماء الفلك والجغرافيا، وكانوا يسمون هذه الساعات "ساعات الاستواء" أو "الساعات المستوية" أو "ساعة الاعتدال"، تمييزًا لها عن ساعة العامة التي تطول وتقصر بحسب الفصول الأربعة.

فقد قال ابن الحائك الهمداني -في كتابه المتقدم- إن مدينة البصرة العراقية "تطلع عليها الشمس بعد مطلعها على موضع الاستواء بساعتين مستويتين غير ثلث خمس ساعة". ونلاحظ هنا ذكره لخطّ الاستواء وكان أحيانًا يميزه بقوله "خطّ الاستواء الطوليّ" مفسرا إياه بأنه "دائرة نصف نهار القبة" الفلكية. والمقصود بهذا الخط ما يُعرف اليوم بـ"خط الطول الأول" (خط غرينتش)!! الذي يقسّم الكرة الأرضية قسمين شرقي وغربي، وهو المعتمد عالميا لتحديد فروق التوقيت بين المناطق الزمنية منذ صدر بذلك قرار "مؤتمر خطوط الطول العالمي" المنعقد في العاصمة الأميركية واشنطن سنة 1301هـ/1884م.

وقد فصّل القول في ساعات الاستواء هذه ابن الحائك؛ فكان يذكرُ الدقائق والثواني وحداتٍ فلكيّة (وزمنيّة حُكمًا)، ويورد معها وحدةً أخرى لم تعد تُذكر، ولم تتحول إلى وحدةٍ زمنيّة في عصرنا كما هو حالُ الدقائق والثواني. وهذه الوحدة كانت تُسمّى "الإصبع"، والإصبع ينقسمُ إلى دقائق وثوان، ومن ذلك قول ابن الحائك عن الشمس إن "مبلغ ظلها في الانقلاب الصيفي ثلاث أصابع، وثماني عشرة دقيقة، وثمان وثلاثين ثانية من إصبع، وظل الانقلاب الشتوي من رأس الجدي بها سبع أصابع، وأربع وثمانون دقيقة، وثمان وأربعون ثانية من إصبع".

ويزعم كثيرٌ من المعاصرين أن علي بن إبراهيم الأنصاريّ المعروف بابن الشاطر (ت 777هـ/1375م) كان أول من صنع آلةً تقيسُ ساعات الاستواء (ذات الستين دقيقة)؛ لكنّنا نجد في كتبنا التراثية ما يدلّ على أنهم كانوا قادرين على قياس ساعات الاستواء قبل ابن الشاطر بقرون عديدة.

فمن ذلك أنّ أبا بكر الرازي الطبيب والفيلسوف المشهور (ت 311هـ/923م) ذكر -في كتابه 'الحاوي في الطبّ'- تشخيصات طبيّة ووصفات علاجيّة تعتمدُ على هذه الساعات، مثل قوله في تشخيص أعراضِ نوعٍ من الحُمّى أنه يستمرُّ في بعض الناس "ساعتين من ساعات الاستواء"؛ فدلّ ذلك على قدرته –وكذلك من سيطالع كتابه من أبناء زمانه- على حساب ساعات الاستواء بسهولة. كما أفاض البَتّاني في كيفية حساب الساعات وتحديد المواقيت بحسابات دقيقة؛ وقد اقتبسنا منه فيما سبق.

ولعلّ إنجاز ابن الشاطر الأهم يكمن في دقة آلته ودوامها، ويشهدُ لذلك أن المؤرخ الأديب ابن أيْبَك الصفدي (ت 764هـ/1363م) قال -في كتابه 'الوافي بالوفيات'- إنه رأى "أَسْطُرْلاب" ابن الشاطر (الأَسْطُرْلابُ آلة فلكية قديمة تكشف حركة الأجرام السماوية وتحدد الوقت والاتجاهات) حين دعاه إلى منزله بدمشق في شهر رمضان سنة 743هـ/1343م.

وسجّل الصفدي إعجابه البالغ بدقة صناعة "أَسْطُرْلاب" ابن الشاطر، وجعل يُقْسم بأن مبدعه أكثر علما من العالميْن الفلكييْن اليونانييْن إقليدس (ت 265ق.م) وأرخميدس (ت 212ق.م)، ومن الفلكي الشهير نصير الدين الطوسي (ت 672هـ/1273م) مؤسس مرصد مدينة مراغة الواقعة اليوم شمال غربي إيران.

ثم قدّم لنا الصفدي وصفا مستفيضا لأسْطُرْلاب ابن الشاطر وما رُكّب فيه من أجسام آلية تحاكي الروبوتات في عصرنا، ومما جاء في وصفه له: "ودخلتُ إلى منزله... لرؤية الأسطرلاب الذي أبدع وضعه، فوجدته قد وضعه في قائم حائط في منزله...، وصورة هذا الإسطرلاب المذكور: قُطره مقدار نصف أو ثلث بذراع العمل تقريبا، يدور أبدًا على الدوام في اليوم والليلة -من غير رملٍ رحَى ولا ماءٍ- على تحرّكات الفَلَك، لكنه نُسّق بتثاقيل قد رتّبها على أوضاع مخصوصة، تُعلم منه الساعات المستوية والساعات الزمانية بحركة واحدة، وهذا من أغرب ما يكون...، وبالجملة فكل ما في رسائل (= مؤلَّفات) الأسطرلاب من الأبواب والأعمال فإنه يظهر في هذا الأسطرلاب للعيان، من غير عملٍ بوضعِ يدٍ أو غيرها"!!

وقد بلغ بالصفدي إعجابُه الشديد بهذا الأسطرلاب أنه نظم فيه شعرًا جاعلا آلة ابن الشاطر مضرب مثلٍ في حسن دورانها وانتظامه؛ فقال:

أفلاكُ شوقيَّ مُذْ تغيَّب شخصُكم ** دارت على قُطْب الجَـوَى فِي خاطري

لا يعتريها فَتْــرَة فِي دورهــا ** فَكَــأَنَّــهَا اسْــطُرلابُ إبْنِ الشـاطر!

كانت تلك حكاية أجدادنا مع الزمن وتوظيفهم لوحدته الأشهر "الساعة"؛ أما حكايتهم مع الساعة -التي هي الآلة المستخدمة في حساب الزمن وقياسه- وأنواع اختراعاتهم في مجالها.. فلعل لها حكايةً أخرى أعظم وأغرب!!